مقدمة

هذا كتاب من أعمال فرويد المتأخرة يطرح فيه آراء فى الحرب والموت والحضارة، فهو من كتب الفلسفة أقرب، وهو تطبيق للتحليل النفسى فى مجالات غير مجال الأفراد، يحاول به فرويد أن يسبر أغوار الحرب ويحللها، ويتعرف إلى ظاهرة الموت ويعلم من أمور الحضارة، ويرد ذلك جميعه إلى أصول فطرية فى الإنسان وناموس فى الطبيعة ومبادئ فى الوجود لا يحيد عنها ولا تحيد، فإن استطاع الإنسان تحويرها أو تهذيبها فإنما ذلك ضمن إطارها كقوانين، وإن نجح فى التعديل فليس ذلك إلا لأنه خاصة من خواصها.

ويحاول فرويد أن يطرح أسئلة من صميم الفلسفة : ما الغاية من الحياة؟ ولماذا نعيش؟ وما هى السعادة؟ وكيف نحصل عليه؟ وما هو الاجتماع وكيف كان وإلى أين يسير؟ وكلها تطبيقات فى التحليل النفسى تسير على نفس المنهج وتجيب على كل ما يثيره من أسئلة إجابات قاطعة حاسمة.

ويندرج هذا الكتاب ضمن مجموعة كتب فرويد الفلسفية : «الطوطم والمحرم» و«مستقبل وهم» و«ما فوق مبدأ اللذة» و«موسى والتوحيد»، وهو بهذه الصفة على قدر كبير من الأهمية، لأن فرويد به وبغيره يستكمل رؤياه بحيث تستحيل إلى أيديولوجية متكاملة تتجاوز التقنيات السيكولوجية إلى آفاق أرحب تصنع منها في زعمه نظرة عالمية Weltanschuung وطريقة فى التعايش مع الوجود والناس بشكل أفضل يحقق السعادة للإنسان.

ولسوف نرى الفرويدية تعالج أطروحات عالجتها الماركسية، والفرويدية كما نعرف جاءت بعد الماركسية، ومن غير المعقول أن لا يحيط فرويد بها بوصفها إيديولوجية العالم المعاصر، لكن فرويد يزعم أنه لم يطلع عليها الاطلاع الكافى، لكن ما يطرحه من أسئلة وما يبديه من إجابات يجعل من الفرويدية صنو الماركسية تشبهها فى الكثير أو تكاملها، حتى أن بعض المفكرين قد أثارتهم ظاهرة التشابه أو التكامل فحاولوا التوفيق بينهما وخرجوا على العالم بفلسفات توفيقية، نحصى من هؤلاء فلهلم رايخ وإيريك فروم وهيربرت ماركوس.

ويلفت نظرى فى تاريخ الإيديولوجيتين مسائل تلحان فى طرحهما، فالفلسفتان من الفلسفات المادية ومن إبداع العقلية اليهودية، والتشابه بينهما حقيقى ويتعدى التشابه فى الأفكار إلى تشابه فى المصطلحات، وكلاهما اتجه اتجاهاً «دوجماطيقيا» جزميا، و«شموليا» نرجسيا، و«استلابيا» عدوانيا، بمعنى أنهما لا تطيقان أن يخرج أتباعهما على نصوصهما، وحدث أن اتهم ماركس ولينين وستالين وتروتسكى الكثيرين بالمروق وحكموا عليهم بالفصل من الدولية العمالية وهى تجمع الاشتراكيين أو الشيوعيين فى العالم، واتهم فرويد عدداً من حواريه بالخروج عليه، وكان اتهامه يرقى إلى مستوى التكفير وأخرج الكثير منهم من دولية التحليل النفسى، وهى تجمع المحللين النفسيين فى العالم.

ويلفت النظر أن القائمين على حركة التحليل كلهم من اليهود، ولا يسعنى إلا أن أتساءل لماذا؟ ولا أعرف الجواب. كل ما أعلمه أن العقلية اليهودية تتباهى بأن التحليل النفسى من إبداعها، ولكنى لا أعثر على تباه مماثل إزاء الماركسية، وإن كنت ألحظ أيضاً أن المنظرين لها بالأمس واليوم معظمهم من اليهود، حتى فلاسفتها الحاليون فى الاتحاد السوفييتى والمجر ورومانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، وأثارت هذه الظاهرة نفسها ستالين فقد وجد أن من أعضاء المكتب السياسى الاثنى عشر تسعة أعضاء يهوداً. ظاهرة ملفتة للنظر لكنى لا أعرف لها جواباً !

ولسوف نرى فرويد يقيم فلسفته فى الحياة على مقولتين أو دعامتين، ويجعل على عرش العالم إلهين، يسمى أحدهما إيروس، وهو إله الطاقة التى تنفخ فيه الحياة وتحفظها عليه وتجمع بين الناس وتربط بينهم برباط الحب فتتكون الأسر فالمجتمعات الكبيرة فالإنسانية بعامتها. والآخر أنانكيه، إله الضرورة التى تشد الناس إلى العمل، فيكون الاجتماع والتعاون والبناء والإنتاج والامتلاك.

ولسوف نلحظ أن أنانكيه هذا هو إله ماركس، أو الضرورة أو الدوافع الاقتصادية التى قال بها والتى تفعل فعلها فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان.

وقد يصوغ فرويد نظريته بطريقة أخرى فيطلق على إيروس مبدأ اللذة، وعلى أنانكيه مبدأ الواقع، ويقول إنهما مبدءان يحكمان الإنسان من قديم

الزمان، وسوف يحكمانه إلى ما شاء الله. ويتحكم مبدأ اللذة فى تصرفات الطفل بالإقبال على كل ما يمنح اللذة والإدبار عما يكون مردوده الألم، وبطريقة أخرى ينشد الإنسان الذى لم تصقله التجارب ولم يتعلم حكمة الوجود، ينشد فى تصرفاته الإشباع المباشر من غير أن يشغل نفسه بظروف الزمان والمكان. لكن العالم من حوله لا يتيح له هذا الإشباع المباشر المطلق، فيضطر أن يتعلم أن يؤجل هذا الإشباع حتى تواتى الظروف، ويتعلم أن يخضع للواقع أو لمبدأ الواقع، ويتعامل مع العالم بإمكاناته المتاحة.

ويقر فرويد للماركسية بقوة التأثير، لكنه لا يسلم معها بغلبة الدوافع الاقتصادية فى تحريك الإنسان والتاريخ، ويحتج على ذلك بأنه حتى فى الظروف الاقتصادية الواحدة لا تسلك الجماعات الإنسانية المختلفة سلوكا واحداً. وإذن فالغلبة لا يمكن أن تعقد إلا للعوامل النفسية، تلك العوامل التى تحدد مسار الظروف الاقتصادية والسلوك الإنسانى، لأن الإنسان حتى وهو يتصرف بضغط من الظروف الاقتصادية إنما يمتثل لنزعاته الغريزية فيحافظ على حياته ويميل إلى العدوان ويريد الحب وينشد اللذة ويتحاشى الألم، ويحقق لنفسه كل ذلك وأكثر منه ضمن إطار عام يسميه فرويد التطور الثقافى حيناً والحضارة أحياناً.

وللتطور منطقه وحتميته، وهو يحمل الإنسان على الانحراف بغرائزه عن أهدافها الأصلية، وبوجهها وجهات لاشك أن الظروف الاقتصادية تدفع إليها، لكنها على أى الأحوال وجهات تتفاوت بتفاوت التكوين العام للأفراد والشعوب، وبتفاوت تأثيرات الثقافة والظروف المادية عليهم جميعاً.

ولسوف نجد أن فرويد فى طرحه لهذه القضايا وغيرها لا يطرحها كفروض علمية، ولا يكون منها فى مواقف العلماء، لكنه يطرحها كتأملات. وهو أقرب فى منهجه إلى أصحاب الرؤى، بل هو يتنبأ بنبوءات ويتنبأ ماركس بنبوءات، ويلفت نظرنا التشابه مرة أخرى، ونتذكر فوراً أنهما يهوديان، وأن خلفيتهما الثقافية أو تراثهما واحد وهو التوراة، وكأنما «رأس المال» و«تفسير الأحلام» سفران آخران ينضافان إلى أسفار التوراة التسعة والثلاثين، وكارل ماركس وفرويد متنبئان يندرجان ضمن قائمة متنبئى بنى إسرائيل الأربعة والعشرين، وحينئذ قد يكون هناك جواب على السؤال الذى طرحناه فى أول الكلام : لماذا هذا التجمع اليهودى حول الماركسية واليهودية؟ ألا يفسر هذا التراث ذلك التجمع، وأن الماركسية واليهودية نسختان عصريتان للتوراة؟ وألا يكون هذا التراث هو الأرض المشتركة التى عليها يجتمع كل اليهود؟ لكن ماذا يشدهم فيه؟ أنه تراثهم وماضيهم وإسهامهم الحضارى، وأنه مادى يبشر بالمادية، ولا أعتقد أن قارئ التوراة أو التالمود يمكن أن يخرج بانطباع آخر سوى أنهما كتابان فى المادية. وتخلو التوراة والتالمود تماماً من أى حديث عن الروح أو الحياة الأخرى أو الحساب، ويقصران فلسفتهما على التعامل مع الواقع وتنظيمه، لكن ماديتهما مادية نفسية وتاريخية واقتصادية ممتزجة مع بعضها امتزاج العناصر فى نسيج الخلية، لكن ماركس ينفرد بالمادية التاريخية الاقتصادية ويبرزها، ويختص فرويد نفسه بالمادية النفسية، ومن ثم يبشران اليهود ويقدمان نسخاً عصرية للمادية اليهودية، الرؤية الحضارية لليهود وأسلوبهم فى الحياة (بلغة فروم وأدلر)، وربما يكون هذا التفسير هو

إجابتى على ما سبق أن أبديت من تساؤل وما لفت نظرى، لكنك قد تسألنى لماذا هذا الجواب؟ فأقول إن ماركس قد نبهنى إليه في مقاله «المسألة اليهودية» الذى طرح فيه تصوره لاضطهاد اليهود، ولم تكن مسألة اضطهاد اليهود تطرح نفسها بشكل حاد حتى ينبرى ماركس للتصدى لها ومناقشتها وتقديم الحلول، لكنه كان يحسها بشكل حاد، وفارق بين أن توجد المشكلة بشكل موضوعى يفرضها اجتماعياً، وبين الوعى بها كمشكلة ذاتية وعياً له أسبابه السيكولوجية، وما كان من الممكن أن يكتب ماركس نحواً من مائتى صفحة ويستشهد بنحو خمسين مرجعا لو لم تكن المسألة اليهودية تلح عليه وتشغل من وقته وفكره الشئ الكثير، بمعنى آخر أنها مسألة قومية تخصه كيهودى، وهو يريد أن لا يجعلها قومية ومن ثم يخلعها من خاصيتها القومية، وطالما أنها مسألة من مسائل الاقتصاد وتعنى أن اليهودية هى الملكية، فإن إلغاء الملكية يفرغ اليهودية من مضمونها ويلغيها كمشكلة، ولكنه فى مقابل حلها بتجريد اليهود من ملكياتهم يجرد المجتمع كله من الملكية، فالملكية سبب انحراف اليهودى، وليس فقط اليهودى ولكنها سبب انحراف كل الناس. لكن نبوءة ماركس تخيب كما خابت نبوءات أخرى، فلقد جرد المجتمع السوفييتى اليهودى وغيره من الملكية لكن المسألة اليهودية ما تزال. وإذن فكما يقول فرويد إن العوامل النفسية هى التى لها الغلبة، وفرويد يبحث عنها فى التراث، وإذا نحن أردنا أن نفهم اليهودى فلنحاول أن نقرأ تراثه، فمفتاح اليهودية كله فى التراث، وفرويد يكشف يهوديته لأنه هنا لا يتناول تراث الإنسانية كلها، وهيهات له أن يفعل، لكنه يقرأ التراث اليهودى ويجعله تراثاً لكل الإنسانية،

وكأنه يجعل أصل الحضارة التراث اليهودى، أو يجعل لها أصلاً يهوديا. ويقدم عالم الأنثروبولوجيا مالينوفسكى تفسيراً لأصل الحضارة باعتبارها حصيلة الشعور بالذنب نتيجة عدوان الأبناء على الأب الأول، ويقبله فرويد لكنه يجعل أصل الحضارة الأوروبية الشعور بالذنب نتيجة قتل الأب ويجعله هنا النبى موسى، ثم يحكم الأبناء بعد موسى لكنهم يقتلون أخاهم، ويقصد به هنا المسيح، ويتأكد الشعور بالذنب مرة أخرى كأصل لهذه الحضارة، وهذا هو السبب الذى يجعل فرويد ومن يحذون حذوه يذهبون إلى القول بأن الحضارة والثقافة والأخلاق الأوروبية يهودية مسيحية الأصل.

يلفت نظرنا ذلك، وليس فرويد مُنزّلا أو مُنزّهاً، وإنى لأعجب بمنهجه كل الإعجاب، وهو يفترض الفروض وينبذ بعضها ويتبنى بعضها ويسايرها حتى النهاية، برؤية واضحة وهدف محدد، يسهب فى التعبير ويستدرك ويستطرد ويلف ويدور وينتهى إلى النهاية التى يريد بأستاذية لاشك فيها، أحب لو أتعلم منها، ويااليت يكون من مفكرينا من يقفو على أثره ويخدم قضايانا القومية والثقافية بمثل ما يخدم فرويد قضايا قومه. وليست هذه المقدمة نقدا وليس فيها ما يشبه النقد، ولكنها ملحوظات كتبتها كهوامش لعل فيها بعض الفائدة.

عبدالمنعم الحفنى